وليسوا على طبع واحد ، فلا تحاول - إذن - أن تجعل الناس على طبع واحد .

وما دام الأمر كذلك ، فليعمل كل واحد على شاكلته ، وحسب طبيعته ، فإنْ أساء إليك إنسان سيء الطبع فلا تقابله بسوء مثله ، ولتعمل أنت على شاكلتك ، ولتقابله بطبع طيِّب ؛ لذلك يقولون : لا تُكافيء مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه . وبذلك يستقيم الميزان في المجتمع ، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) ﴾ [الإسراء] والربُّ : المتولّي للتربية ، والمتولّي للتربية لا شكَّ يعلم خبايا المربَّى ، ويعلم أسراره ونواياه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾

(١) **سبب نزول الآية** : عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة وهو متكيء على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون ، فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول في الروح ؟ فسكت ثم ماج ، فأمسكت بيدي على جبهته ، فعرفت أنه ينزل عليه ، فأنزل الله عليه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٢١) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٩٤) .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/٦٠) : « هذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه » .

والسؤال يَرد فى القرآن بمعان متعددة ، ووردتْ هذه الصيغة ﴿ يَسْأَلُونكَ ﴾ فى مواضع عدّة ، فإنْ كان السؤال عن شيء نافع يضر الجهل به أجابهم القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ .. (٢٢٢)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾ [البقرة]

فإنْ كان السؤال عن شيء لا يضر الجهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما فى سؤالهم عن الأهلّة : كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً ، ثم يأخذ فى التناقص ليعود كما بدأ ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن فى هذه الأمور الكونية التى لم نعرفها إلا حديثاً أمر غير ضرورى ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن فى إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أُميّة غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحوِّلهم القرآن ، ويلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهلّة : ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

وقد يأتى السؤال ، ويُراد به اختبار رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم : اسألوه عن

الروح ، وهم يعلمون تماماً أن هذه مسألة لا يعلمها أحد ، لكنهم أرادوا الكيد لرسول الله ، فلعله يقول في الروح كلاماً يأخذونه عليه ويستخدمونه في صَرْف الناس عن دعوته[1] .

ولا شكَّ أنه سؤال خبيث ؛ لأن الإنسان عامة يحب أن يظهر في مظهر العالم ، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره فاستغلوا هذه العاطفة ، فالرسول لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكة ، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم .

ولكن خَيَّب الله سَعْيهم ، فكانت الإجابة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرون منهم ؛ لأنها طابقت ما قالته كتبهم عن الروح ، وأنها من عند الله .

و (الرُّوح) لها إطلاقات مُتعدِّدة ، منها : الرُّوح التي تمدُّ الجسم بالحياة إن اتصلت به ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

فإذا ما فارقتْ هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة ، وتحوَّل إلى جثة هامدة ، وفيها يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة]

وقد تأتي الروح لتدل على أمين الوحي جبريل عليه السلام ، كما في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (١/٢٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] .

وقد تُطلَق الروح على الوحي ذاته ، كما في قوله تعالى :
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]

وتأتي بمعنى التثبيت والقوة ، كما في قول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

وأُطلقَتْ الروح على عيسى ابن مريم - عليه السلام - في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء]

إذن : لهذه الكلمة إطلاقات مُتعدِّدة ، فما العلاقة بينها ؟

قالوا : الروح التي بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ في الإنسان تعطي مادية الحياة ، ومادية الحياة شيء ، وقيَمُ الحياة شيء آخر ، فإذا ما جاءك شيء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحاً ؟ لا ، بل هو روح الروح ؛ لأن الروح الأولى قصاراها الدنيا ، لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة في الآخرة ، فأيُّهما حياته أطول ؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا : إياك أنْ تظنَّ أن الحياة هي حياتك أنت وكونك تُحسُّ وتتحرك وتعيش طالما فيك روح ، لا بل هناك روح أخرى أعظم في دار أخرى أبْقى وأدْوم : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

لأن الروح التي تعيش بها في الدنيا عُرْضة لأنْ تُؤخَذ منك ، وتُسلَب في أيِّ مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً في بطن أمك ، إلى أنْ تصير شيخاً طاعناً في السنِّ .. أما روح الآخرة ، وهي روح القيم وروح المنهج ، فهي الروح الأقوى والأبْقى ؛ لأنها لا يعتريها الموت .

إذن : سُمّى القرآن ، وسُمّى الملك النازل به روحاً ؛ لأنه سيعطيني حياة أطول هي حياة القيم في الآخرة .

وهنا يقول تعالى : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. (٨٥)﴾ [الإسراء]

أي : أن هذا من خصوصياته هو سبحانه ، وطالما هي من خصوصياته سبحانه ، فلن يطلع أحداً على سرِّها . وهل هي جوهر يدخل الجسم فيحيا ويسلب منه فيموت ، أم هي مراد (بكُنْ) من الخالق سبحانه ، فإنْ قال لها كُنْ تحيا ، وإنْ قال متْ تموت ؟

إنَّ علم الإنسان سيظل قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة ، وسيظل بينهما مسافات طويلة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء]

وهل عرف العقل البشرى كل شيء حتى يبحث في أسرار الروح ؟!

ولما تعرَّض أحد رجال الصوفية للنقد ، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفي : وهل أحطْتَ علْماً بكل شيء في الكون ؟ قال الرجل : لا ، قال : فأنا من الذي لا تعلَم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها ؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منها . فحين حدثنا عن الأهِلّة قال : ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

وهذه هي الفائدة التي تعود علينا والتي تهمنا من الأهلّة ، أما حركتها ومنازلها والمراحل التي تمر بها الأهلّة فأمور لا يضُر الجهل بها ؛ ذلك لأن الاستفادة بالشيء ليستْ فرعاً لفهم حقيقته ، فالرجل

الأميّ فى ريفنا يقتنى الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة ؟ وكيف تستقبل ؟

إذن : الاستفادة بالشىء لا تحتاج معرفة كل شىء عنها ، فيكفيك - إذن - أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك فى متاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يُوفّر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يُجدى ، وألاّ يُتعِب نفسه ويُجهدها فى علم لا ينفع ، وجهل لا يضر .

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره فى مثل مسألة الروح هذه ، أنْ ينشغل بعمل ذى فائدة له ولمجتمعه . وأىّ فائدة تعود عليك إنْ توصلت إلى سرٍّ من أسرار الروح ؟ وأىّ ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً ؟

إذن : مناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك ، وما فائدتها التى تعود عليك .

والحق سبحانه حينما قال : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، وما زال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا ، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلتْ إليه البشرية من علم ،

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

وكأنه سبحانه يقول : يا ابن آدم ، الزم غرزك ، فإن وقفت على سرٍّ فقد غابتْ عنك أسرار .

وقد أوضح الحق سبحانه لنا هذه المسألة في قوله : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

وهاهم العلماء والباحثون يقفون كل يوم على جديد في الكون الفسيح وفي الإنسان ، ولو تابعتَ ما توصَّل إليه علماء الفضاء ورجال الطب لَهالكَ ما توصَّلوا إليه من آيات وعجائب في خَلْق الله تعالى ، لكن هل معنى ذلك أننا عرفنا كل شيء ؟ إن كلمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة .

والمتتبع لطموحات العقول وابتكاراتها يجد التطور يسير بخُطىً واسعة ، ففي الماضي كان التقدم يُقَاسُ بالقرون ، أما الآن ففي كل يوم يطلع علينا حديث وجديد ، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُستعمل ؛ لأنها قبل أنْ تُبَاع يخرج عليها أحدث منها ، لكن كلها زخارف الحياة وكمالياتها ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ .. (٢٤)﴾ [يونس]

فكلُّ مَا نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة ، فقد كُنَّا نعيش بخير قبل أن نعرف الكهرباء ، وكُنَّا نشرب في الفخار والآن في الكريستال ، فابتكارات الإنسان في الكماليات ، أما الضروريات فقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض .

فإذا ما استنفدتْ العقول البشرية نشاطاتها ، وبلغتْ مُنتهى مَا لديها من ابتكارات ، حتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم في

زمام الكون ، لا يعجــزهم فيه شــيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ[1] بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

فبـعد ما أخذتم أسرار المنعِم فى الكون على قَدْر ما اسـتطعتم ، فاذهبـوا الآن إلى المنعم ذاته لتروا النعيم على حـقيقتـه ، وكلما رأيت فى دنيـا الناس ابتكارات واختـراعات تُسـعد الإنســان ، فهـذا ما أعـدَّ البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّ الله الخالق لخلْقه ؟

فالمفـروض أن زخارف الحياة وزينتـها وكمالياتـها لا تدعونا إلى الحقـد أو الحسد لمن توفـرتْ لديه ، بل تدعونا إلى مـزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقى عند المنعِم سبحانه .

ولو تأملتَ هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التى خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله ، فدَوْر الإنسان أنه أعمل عقله وفكره فى المقوّمات التى خلقها الله ، لكن مهما وصلتْ هذه الارتقاءات ، ومـهما تطورتْ هل ستـصلِ إلى درجة : إذا خطر الشىء ببالك تجدْه بين يديك ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(١) أى : كأنها ما كـانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : كان لم تغن ، كـان لم تنعم . [تفسير ابن كثير ٢/٤١٣] .

الحق سبحانه فى هذه الآية يريد أنْ يُربِّى الكفار ويُؤنِّبهم ، ويريد أن يُبرِّئ ساحة رسوله ﷺ ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبلِّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْترٍ ، أو أتى بشىء من عنده ، بدليل أننى لو شئتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة .

فإنْ سأل متسائل : وكيف يذهب الله بوحى مُنزَّل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار ؟

نقول : أولاً : سياق الآية يدلُّنا على أن هذه العملية لم تحدث ؛ لأن الحق سبحانه يقول ﴿وَلَئِن شِئْنَا .. ﴿٨٦﴾﴾ [الإسراء] بمعنى : لو شئْنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد بيان إمكانية ذلك ليُبرِّئ موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمر شىء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ .. ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران] أنها ضد رسول الله ، وقَدْح فى شخصه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أنْ يتحمَّل عنه ما يمكن أن يُفسد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم : لا تغضبوا من محمد فالأمر عندى أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذى فعل شيئاً ، فيأتى سيده ليدافع عنه ، فيقول : أنا الذى أمرته .

ثانياً : لماذا نستبعد فى قدرة الخالق سبحانه أن يسلب منَّا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقد الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أرادوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بتلك .

ونلاحظ فى الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها « إنْ » ، وهى

تستخدم للأمر المشكوك فى حدوثه ، على خلاف « إذا » فتأتى للأمر المحقق .

ثم يُوضِّح لنا الحق سبحانه أنه إنْ ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٧) ﴾ [الإسراء] أى : أنك لا تجد لك وكيلاً فى أىِّ شىء إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فَضْلنا عليك كبير .

ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعلن تحديه للعالمين :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، وأسمِعْ بها الناس جميعاً ؛ لأن القضية قضية تَحَدٍّ للجميع .

﴿ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء] وهما الثَّقَلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذى هو منَاطُ التكليف . وقد أرسل النبى ﷺ إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى

القرآن كما استمعت إليه البشر :

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. ②﴾ [الجن]

والتحدِّى معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارض ، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارض ، فلا يتحدّاهم بشىء لا عِلْم لهم به ، ولا خبرة لهم فيه ؛ لأنه لا معنى للتحدى فى هذه الحالة ولا جدوى منه ، كما لو تحدَّيْتَ إنساناً عادياً برفع الأثقال ولم يسبق له أن ارتاض هذه الرياضة ، إنما تتحدَّى بها بطلاً معروفاً عنه ممارسة هذه العملية .

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدِّى فى محلِّه ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى ـ عليه السلام ـ العصا واليد ، وهى من جنس ما نبغ فيه قومه من السِّحْر ، وجاءت معجزة عيسى ـ عليه السلام ـ إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ لأن قومه نبغوا فى الطب ، وكانت معجزته ﷺ فى البلاغة والفصاحة التى نبغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صِدْق رسالته ، لكن الآيات لا تُقترح على الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو الذى يختار الآيات التى تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صِدْق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزات فى مجالات لا عِلْم لهم بها ، فكيف يتحداهم الله فى مجال لا نبوغَ لهم فيه ، وليس لهم دراية به ؟

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد ﷺ ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لَدُن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثتْ لرسول الله ليراها القوم الذين عاصروه ، ومثْل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردتْ من صادق معصوم ؛ لأن الهدف من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله في نفوس مَنْ شاهدوها ، فنبُوع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وكَوْنُ الشجرة تسعى إليه والحيوان يُكلِّمه ، فالمقصود بهذه المعجزات مَنْ شاهدها وعاصرها ، لا مَنْ أتى بعد عصره ﷺ .

وفي القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوي يُنظِّم حركة الحياة ، وهو في الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفكّ عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتي بمنهج فقط ، أما المعجزة فشيء آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه والأبرص ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد ﷺ فقد انفرد بأن تكون معجزته هي منهجه .

لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أنْ يُفسح لهم جبال مكة ، ويُوسِّع عليهم الأرض ، وأنْ يُحيي لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. (٣١) ﴾ [الرعد]

أي : كان في القرآن غَنَاءٌ لكم عن كُلِّ هذه المسائل .

وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا : إنْ كانت

الرسالة المحمدية للناس كافة ، وجاءت معجزته في البلاغة والفصاحة ليتحدَّى بها قومه من العرب ، فما لَوْنُ الإعجاز لغير العرب ؟

نقول : أولاً : إذا كان العرب الذين ارتاضوا على الملكة العربية وأساليبها قد عجزوا أمام هذا التحدى ، فغيرهم مِمَّنْ اتخذ العربية صناعة لا شكَّ أعجز .

ثانياً : مَنْ قال إن المعجزة في القرآن في فصاحته وبلاغته فقط ؟

لقد جاءت بلاغة القرآن وفصاحته للأمة المتلقِّية للدعوة الأولى ، هؤلاء الذين سيحملون عِبْءَ الدعوة ، ويَسِيحُون بها في شتى بقاع الأرض ، فإذا ما انتشرت الدعوة كانت المعجزة للناس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر .

فالغيبيات التي يخبرنا بها ، والكونيات التي يُحدِّثنا عنها ، والتي لم تكُنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن ، وهو مُنزَّل على نبى أُمىٍّ ، وفي أمة أميّة غير مثقفة ، فهذه كلها نواحى إعجاز للعرب ولغيرهم ، وما زِلْنا حتى الآن نقف أمام آيات ، وننتظر من العلم أنْ يكشفَ لنا عن معناها .

وفي الماضي القريب توصَّل العلم إلى أن الذرة أصغر شيء في الوجود ، وقد ذكر القرآن الذرة في مثل قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة]

وبتقدُّم وسائل البحث توصَّلوا إلى تفتيت الذرة أو شطرها ، ووجدنا في الكون ما هو أقل من الذرة ، فظنَّ البعض أن هذه لا ذكْر لها في القرآن ، وظنوا أنهم تصيَّدوا على القرآن مأخذاً ، ولو أمعنوا

النظر فى كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمى رصيداً فى كتاب الله حيث قال تعالى :

﴿وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

والقرآن يقول (أصغر) لا صغير ، فلو فتَّتْنَا أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيداً واحتياطاً فى كتاب الله ، ألاَ ترى فى ذلك إعجازاً ؟

إذن : تحدَّاهم الحق سبحانه بقوله : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] وأُدخل الجنّ فى مجال التحدى ؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر نابغ ، أو أديب مُفوَّه ، أو عبقرى عنده نبوغ بيانى شيطاناً يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه « وادى عَبْقَر » ، لذلك لم يكتَف القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبونَ إليهم القوة فى هذا الأمر .

ثم يقول تعالى : ﴿عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] فالتحدِّى أنْ يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أنْ يأتوا به نفسه ؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الأمر ، فمستحيل أنْ يأتُوا به نفسه مرة أخرى ؛ لأن الواقع لا يقع مرتين .

إذن : المتصوَّر فى مجال التحدى أنْ يأتوا بمثله ، فلو قلت : هذا الشيء مثل هذا الشيء ، فلا شكَّ أن المشبَّه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقى المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الأصل من باب أَوْلَى .

فالحق سبحانه فى قوله : ﴿لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : لا يغيب ولا يبعد عنه أى شيء ، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

لا ينفى عنهم أن يأتُوا بقرآن ، بل بمثل القرآن ، فإذا كانوا لا يأتون بالصورة ، فهل يقدرون على الأصل ؟!

ثم يقول تعالى زيادةً فى التحدِّى : ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨)﴾ [الإسراء]

والظهير : هو المعاون والمساعد والمعين على الأمر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾ [التحريم]

لأنه قد يقول قائل : إن هذه المهمة لا يقوم بها فرد واحد ، فقال لهم سبحانه : بل هاتوا كل ما لديكم من طاقات إبداعية وعبقريات بيانية ، واستعينوا بما تزعمون من إلهام الجن ، وتعاونوا جميعاً فى سبيل هذا التحدّى ، حتى إذا كان فى أحدكم نقص أكمله الآخر .

لكن ، هل ظَلَّ التحدى قائماً على أنْ يأتُوا بمثل القرآن ؟

المتتبع لهذا الموضوع فى القرآن الكريم يجد الحق تبارك وتعالى يتنزَّل معهم فى القدر المطلوب للتحدِّى ، وهذا التنزُّل يدل على ارتقاء التحدِّى ، فبعد أنْ تحدّاهم بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، تحدّاهم بعشْر سُور[1] ، ثم تحدّاهم بسورة واحدة[2] ، وكلما تنزل معهم درجة ارتقى بالتحدى ، فلا شكَّ أن تحديهم بسورة واحدة أبلغ من تحديهم بمثل هذا القرآن .

وهذا التنزُّل الذى يفيد الارتقاء كما نجمع مثلاً بين المتناقضات ،

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣)﴾ [البقرة] .

فنقول : صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة . ومع هذا التنزُّل لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله .

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدِّى ، فليس الهدف منه تعجيز القوم ، بل أن نثبت لهم السواسية بين الخَلْق ، فالجميع أمام الإله الواحد سواء ، وهذه هي القضية التى تُزعجهم وتقضّ مضاجعهم ، والقرآن سيثبت لهم صِدْق محمد ، وسيرفع من مكانته بين القوم ، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبِّرون لقتله .

ولذلك من غبائهم أن قالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فاعتراضهم ليس على القرآن فى حَدِّ ذاته ، بل على محمد الذى نزل القرآن عليه ، فهم يحسدونه على هذه المكانة ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

وسبحان الله ، إذا كان الخَلْق يختلفون أمام رحمة الله فى مسائل الدنيا التى لهم فيها أسباب وسَعْى واجتهاد ، فكيف بالأمر الذى ليس فى أيديهم ؟ كيف يريدون التدخُّل فيه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآنى ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) ﴾

التصريف : هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان ،

والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوِّل الكلام بين أساليب متعددة ؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعانى مختلفة ، فلا بُدَّ أن يصرف الأسلوب ويُقلبه على أكثر من وجه ، فالذى لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثال مختلفة .

ونأخذ مثالاً على ذلك قضية القمة ، وهى الألوهية ووحدانية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها فى معارض مختلفة هكذا : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء]

أى : فى السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربى ؛ لأنه يفتقد الملكة اللغوية التى يتلقَّى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول : (إلا) أداة استثناء . فالمعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لَفَسدتا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز ؛ لأنها مشاركة ، لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإنْ كان معه آخرون ، والمنطق فى هذه الحالة يقول : لو كان فى السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا تفسد .

لكن الحقيقة أن (إلاَّ) هنا ليس للاستثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن : لو كان فيهما آلهة غير الله لَفسدتا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى مُنزَّه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله

آخر لَذهبَ كل إلـه بما خلق ، واختصَّ نفسه بمنطقة معـينة ، ولعلا بعضُهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شيء للوجـود ، فأيُّهما يبرزه ؟ إنْ قـدر على إبراز واحد فـالآخـر عاجـز ، وإنْ لم يقـدر عليه واحـد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للألوهية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر ، فيقول : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

أى : إنْ كان مع الله آلهة كما يدَّعى المشركون لَذهَب هؤلاء الآلهة إلى ذى العرش يُعاتبونه أو يُؤدِّبونه ، أو يُعاقبونه ؛ لأنه انفرد بالملْك من دونهم .

وبأسلـوب آخـر يقـول تعـالى : ﴿شَـهِـدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

ولم يَأتِ مَنْ ينازعه هذه المكانة ، أو يدَّعـيها لنفسـه ، إذن : فقد ثبتتْ له هذه القضية إلى أنْ يُوجَد معارض ، فالمختلف فيه يتفق عليه إنْ لم يظهر له معارض .

وسبق أن ضربنـا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى : هَبْ أن جـماعة انصرفـوا من مجلس ، ثم وجد صـاحب البيت حافـظة نقود فى مكان مجلسهم فعرضها عليهم ، فـلم يدَّعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال : هى لى ، أيشكُّ صاحب البيت أنها له ؟

نرى هذا التصـريف أيضاً فى أسلوب القرآن فى مسـألة ادعاء أن لله تعالى ولداً ، تعالى الله عمَّـا يقول المبطلون علُواً كبيراً ، فيـعرضها القرآن هكذا : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ

اللّه .. ﴿٣٠﴾ [التوبة] فيردُّ القرآن هذا الزعْم بقوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ .. ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام]

وفي موضع آخر يعرض المسألة هكذا : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل]

أي : فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه ، فهل يليق أنْ تأخذوا أنتم البنين ؛ لأنهم المفضلون حَسْب زعمكم ، وتتركون له تعالى البنات : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم] أي : قسمة جائرة .

وهكذا يُصرِّف القرآن أسلوبه ، ويُحوِّله ليقنع به جميع العقول ؛ ليناسب كل الطباع . وتمتاز لغة العرب بالمثل والحكمة ؛ لذلك كان من التصريف في أسلوب القرآن استخدام المثل ، وهو تعبير مُوجَز ، يحمل المعاني الكثيرة وتتعشق لفظه ، وتقوله كما هو دون تغيير إذا جاءت مناسبته .

فإذا أرسلتَ أحداً في مهمة أو جماعة ، فيمكنك حين عودتهم تقول لهم مستفهماً : (ماذا وراءك يا عصام ؟) هكذا بصيغة المؤنثة المفردة ، لأن المثل قيل هكذا ، حيث أرسل أحدهم امرأة تسمى عصام لتخطب له إحدى النساء وحينما أقبلتْ عليه خاطبها بهذه العبارة ، فصارت مثلاً[1] .

وكما تقول لصاحبك الذي يتعالى عليك : (إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) إذن : المثل يمتاز بأنه يثبت على لفظه الأول ولا يتغير عنه .

أما الحكمة فهي : قول شارد يقوله كل واحد ، وهو كلام يقلُّ لفظه ، ويجلُّ معناه .

---

(١) ذكر ابن منظور في لسان العرب (مادة : عصم) هذا المثل ولكن للمذكر ، ثم قال : « عصام هو اسم حاجب النعمان بن المنذر ، وهو عصام بن شهير الجَرْمىّ » وقد ذكره الزركلي في الأعلام (٤/٢٣٣) .

كما تقول : « رُبَّ أخ لك لم تَلِدْهُ أمك » .

« لا تُعلَّم العَوانُ الخِمْرة »[1] .

« إن المنبتَّ[2] لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » أى : أن الذى يُجهد دابته فى السير لن يصل إلى ما يريد ؛ لأنها ستنقطع به ولا تُوصلُه .

ومن الحكمة هذه الأبيات الشعرية التى صارت حكمة متداولة :

وَمَنْ يكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلالا[3]

وقوله :

وأتْعَس النَّاسِ حَظّاً مَنْ تكونُ لَه ... نَفْسُ الملُوكِ وحالاتُ المسَاكين

وهَبْ أن ولدك أهمل دروسه طوال العام وعند الامتحان أخذ يجدّ ويَجْتهد ويُرهق نفسه ، هنا يمكنك أن تقول له : (قبل الرماء تُملأُ الكنائن) والكِنانة هى المخلاة التى تُوضَع بها السهام ، وهذه لا بُدَّ أنْ يُعدّها الصياد قبل صَيْده لا وقت الصيد .

إذن : لأهمية المثل فى لغة العرب جعله القرآن لَوْناً أسلوبياً ، وأداة للإقناع ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

لأن الله تعالى يخاطب بالقرآن عقولاً مختلفة وطبائع متعددة ؛ لذلك لا يستحى أن يضرب المثل بأحقر مخلوقاته ليُقنِعَ الجميع كُلاً بما يناسبه .

---

(١) قال ابن برى : أى المجرَّب عارف بأمره ، كما أن المرأة التى تزوجت تُحسن القناع بالخمار . [لسان العرب ـ مادة : عون] .

(٢) الانبتات : الانقطاع . والمنبت فى الحديث : الذى أتعب دابته حتى عطب ظهره ، فبقى منقطعاً به . [لسان العرب ـ مادة : بتت] فلا هو وصل إلى غايته من سفره ، ولا هو حافظ على دابته .

(٣) الماء الزلال : سريع النزول والمرّ فى الحلق . وقيل : هو الماء العذب الصافى . [لسان العرب ـ مادة : زلل] .

وقوله : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا قال ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فالعجيب هنا مسألة الصِّغَر ؟

نقول : المراد بما فوقها . أى : فى المعنى المراد ، وهو الصِّغر . أى : ما فوقها فى الصِّغر لا أكبر منها .

ثم يأتى بالمعنى فى صورة أخرى :

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت]

إذن : يُصرِّف الله الأمثال ويُحوِّلها ليأخذ كل طَبْع ما يناسبه وما يقتنع به ، وليس القرآن على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يعطى للجميع . بل يُشخِّص الداءات ويُحلِّلها ويعالجها بما يناسبها ؛ لذلك يأتى الأسلوب مختلفاً .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث النبوى الشريف ، حيث كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ السؤال الواحد ، وتأتى الإجابة مختلفة من شخص لآخر ، فقد سُئِل ﷺ كثيراً : ما أفضل الأعمال يا رسول الله ؟ فقال للسائل : « الصلاة لوقتها »[1] . وقال لآخر :

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

« بر الوالدين »[1] وقال لآخر : « أنْ تلقَى أخاك بوجه طلْق »[2] .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر ؛ لأن رسول الله ﷺ يراعى حال سائله ، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكلشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هى مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) ﴾ [الإسراء]

نعرف أن (إلاّ) أداة استثناء ، تُخرج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبَّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيدا ، والآية أسلوب عربى فصيح .

نقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يَرْضَ ، فالمراد : لم يَرْضَ إلا الكفور ، فلا بُدَّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبق بنفى .

ثم يقول الحق سبحانه[3] :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) ﴾

---

(١) قال أبو عمرو الشيبانى : أخبرنا صاحب هذه الدار ـ وأومأ بيده إلى دار عبد الله ـ قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها . قال : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٧٣) .

(٣) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٨ ـ ١٧٠) عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأبا جهل ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا فى أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعزّ عليه تعنتهم حتى جلس إليهم ، ودار بينهم نقاش طويل ذكره الواحدى بطوله ، فنزلت الآية .

(لَنْ) تفيد تأبيد نَفْى الفعل فى المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه . أى : فى المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، لا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلِّب بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذى لا يتغيَّر ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال ، فليس له أنْ يحكمَ على شىء حُكْماً قاطعاً فى مستقبل هو لا يملكه ، فالذى يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذى لا تتناوله الأغيار .

لذلك ؛ فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط ؛ لأنه من أهل الأغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة ؟

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُهُ   تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيل تَمّ

والعجيب أن الناس يتطلعون فى نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبَّذا ، لو حدث كذا لَتَمّت هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص فى النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها ؟

فَلْيَرْضَ كلُّ صاحب نعمة بما فيها من نقص ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عَيْن حاسد ، أو حقد حاقد .

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعينه على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ، ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد .. وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة فى الآخرين ، وأنه التميمة التى تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبى[1] أن يمدح سيف الدولة[2] قال له :

شَخِصَ الأنامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ   مِنْ شَرِّ أعْيُنِهِمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

أى : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال ، فاعمل عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم .

إذن : (لن)تفيد تأبيد النفى فى المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أمّا صاحب الأغيار فليس له ذلك ، والذين آمنوا فيما بعد برسول الله ممَّنْ قالوا هذه المقولة : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتُكم (لن) فى الكذب ؛ لأنكم أبّدتُم نَفْى الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفجِّر لكم النبى ينبوعاً من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبى جهل وقال فى الخَنْدَمَة[3]

---

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) هو : على بن عبد الله بن حمدان التغلبى ، أبو الحسن سيف الدولة ، ولد فى ميافارقين بديار بكر عام ٣٠٣ هـ ، له أخبار ووقائع مع الروم كثيرة ، ملك واسط ودمشق وحلب وتوفى بها ودفن فى ميافارقين عام ٣٥٦ هـ عن ٥٣ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٣٠٣] .

(٣) الخندمة : جبل معروف عند مكة ، قال ابن برى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

وكان عكرمة بن أبى جهل قد قال قبل هذا عن أذان بلال بن رباح للظُّهْر فوق ظَهْر الكعبة يوم فتح مكة : لقد أكرم الله أبا الحكم (يقصد أباه أبا جهل) حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول . [دلائل النبوة للبيهقى ٤/٣٢٨] .

ما قال ، ثم رجع إلى النبى ﷺ مؤمناً معتذراً[1] وخرج محارباً مع خالد بن الوليد فى اليرموك ، وحين طُعِن الطعنة المميتة ، وحمله خالد ، فإذا به يقول له : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

إذن : مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالكاً لزمامها ، ضامناً لنفسه ألاَّ يتغير ، وألاَّ تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمتدبِّر لأسلوب القرآن فى سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④﴾ [الكافرون]

هكذا نفتْ الآية عبادة كل منهما لإله الآخر فى الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى : ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤﴾ [الكافرون] لينفى أيضاً احتمال العبادة فى المستقبل ، إذن : فليس فى الآية تكرار ، كما يرى بعض قِصَار النظر .

ولك الآن أنْ تسألَ : كيف نفى القرآن الحدث فى المستقبل ؟ نقول : لأن المتكلِّم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذى يملك الأحداث ولا تُغيِّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبَّد النَّفى فيه .

---

(١) فَرَّ عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئاً . فقال عكرمة : « والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره ، اللهم إن لك علىَّ عهداً إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفواً كريماً قال : فجاء فأسلم » [الإصابة فى تمييز الصحابة [٢٥٨/٤ ، ترجمة ٥٦٣٢] .